سيرة الأشرف من بردة الشرف

إعداد:
د. كامل راجي أكنؤو
رئيس قسم اللغة العربية، كلية التربية الفدرالية، أبيأوكوتا، ولاية أوغن، نيجيريا.
و
د. محيي الدين أديمولا عبد السلام
قسم اللغة العربية بكلية التربية الفدرالية، أبيأوكوتا، ولاية أوغن، نيجيريا.

THE BIOGRAPHY OF THE MOST HONORABLE PROPHET FROM THE BUR'DAH OF SHARAF

RAJI, Kamilu Akano Ph.D & **ABDUSSALAM, Muhideen Ademola Ph.D**
Department of Arabic, Federal College of Education, Abeokuta, Ogun State.
08033595267 pelewura2010@yahoo.com 08053256660 maabdussalam@fce-abeokuta.edu.ng

ملخص البحث
سيرة الأشرف من بردة الشرف

حياة الرسول -ﷺ- حافلة بعبر ودروس، وفي السيرة النبوية مواقف إيمانية، وأحداث تربوية؛ لذا انكبّ العلماء على تدوين سيرته -ﷺ- ودراستها، ووضعت في المناهج الدراسية بداية من روضة الأطفال.

وقد شارك في تدوين السيرة النبوية أدباء وشعراء، منهم الإمام شرف الدين البوصيري، الذي أودع في مدائحه النبوية ولا سيما بردته الشهيرة محتويات مادة السيرة المدروسة في المدارس؛ وفي هذا البحث دراسة "سيرة الأشرف من بردة الشرف".

يهدف البحث إلى إبراز القيمة التأريخية لقصيدة البردة للإمام البوصيري وكذلك القيمة الدينية، والكشف عما فيها من السيرة النبوية. ويتكون البحث من مقدمة وتمهيد فيه الحديث عن البردة وصاحبها، وسبعة مباحث مرتبة حسب ما جاء في أبيات البردة، ثم خاتمة فيها أهم النتائج والتوصيات، مذيّلة بقائمة المصادر والمراجع.

ولتحقيق أهداف البحث يستخدم الباحثان المنهج الاستقرائي في تتبّع الأبيات وما فيها من السيرة النبوية، والمنهج الوصفي في شرح ما في الأبيات المدروسة من السيرة، وتحليله مع الاستشهاد له من نصوص الوحيين.

Abstract

The life of the most honourable Prophet Muhammad (May Allah's peace and blessings be upon him) is replete with lessons and morals. His biography encompasses both faith -based stances and educational events. Therefore, scholars have devoted themselves to study his biography and it has been incorporated into school curricula, beginning with kindergarten. Linguists and poets have participated in documenting the Prophet's biography, including Imam Sharafuddeen Al-Busoyry, who enriched his eulogies of the Prophet, particularly his famous poem "Bur'dah", with the Prophet's biography. Hence, this research examines "The Biography of the Most Honorable Prophet from the Bur'dah of Sharaf. "The paper aims to highlight the historical and religious values of Imam Al-Busoyry's poem "The Bur'dah," and to uncover the Prophet's biography in its content. This paper consists an introduction and a preface discussing the poem Bur'dah and its author, seven chapters arranged according to the lines of the poem and a conclusion with recommendation followed by references.

The paper use both inductive and descriptive methods for study and analysis in order to achieve its setting aims and objectives.

مقدمة

حياة الرسول -ﷺ- حافلة بعبر ودروس، وفي السيرة النبوية مواقف إيمانية، وأحداث تربوية؛ لذا انكبّ العلماء على تدوين سيرته -ﷺ- ودراستها، و"إنّ المتتبع لما أُلِّف في السيرة النبوية، وما يلحقه من الخصائص النبوية، والشمائل المحمدية، وأعلام النبوة ودلائلها، يرى حشدًا هائلًا من المصادر والمراجع مما لا يكاد يحصيه مؤلف" [القسطلاني، د ت، 6/1].

وقد شارك في تدوين السيرة النبوية علماء العلوم العربية، ومنهم اللغويون والأدباء والشعراء، والإمام شرف الدين البوصيري دوّن في مدائحه النبوية سلسلة من السيرة، وفي مديحته الميمية المشهورة بالبردة موضوعات من السيرة؛ لذا يتناول هذا البحث **"سيرة الأشرف من بردة الشرف"**.

يهدف البحث إلى إبراز القيمة التأريخية لبردة الإمام شرف الدين البوصيري، وكذلك القيمة الدينية، والكشف عمّا فيها من السيرة النبوية.

ويتكون البحث من مقدمة وتمهيد وسبعة مباحث وخاتمة ثم قائمة المصادر والمراجع.

أمّا التمهيد ففيه الحديث عن البردة وصاحبها.

المبحث الأول: قيام الرسول -ﷺ- في الليل.

المبحث الثاني: زهد الرسول -ﷺ-.

المبحث الثالث: شفاعة الرسول -ﷺ-.

المبحث الرابع: خُلُق الرسول -ﷺ-.

المبحث الخامس: معجزة الرسول -ﷺ-.

المبحث السادس: الإسراء والمعراج.

المبحث السابع: غزوات الرسول -ﷺ-.

الخاتمة وفيها أهمّ نتائج البحث والتوصيات.

قائمة المصادر والمراجع.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مباحث هذا البحث مرتبة حسب ما ورد في أبيات البردة المدروسة، وليس بحسب الترتيب الوارد في كتب السيرة النبوية.

ولتحقيق أهداف البحث يستخدم الباحثان المنهج الاستقرائي في تتبّع الأبيات وما فيها من السيرة النبوية، والمنهج الوصفي في شرح ما في الأبيات المدروسة من السيرة، وتحليله مع الاستشهاد له من نصوص الوحيين.

التمهيد: البردة وصاحبها

البُرْدَة في اللغة العربية: كِساءٌ مُرَبَّعٌ فيه صُفْرة، ونحو ذلك، وقيل: كساءٌ أسود مربَّعٌ فيه صُوَر، تلبسه الأعراب [الأزهري، 2001، 76/14]. والمراد بالبردة في الشعر العربي بعد العصر الجاهلي ما ذكره الخوارزمي (د ت، ص: 140) "البردة: بردة كان كساها رسول الله -ﷺ- كعب بن زهير الشاعر فاشتراها منه معاوية والخلفاء يتوارثها أيضًا".

قال الدكتور رجب (1423ه، ص: 52): "البُرْدَة: قطعة من الصوف كانت تستعمل منذ العصر الجاهلي، تتخذ عباءة بالنهار وغطاء بالليل، واشتهرت بصفة خاصة بردة النبيّ -ﷺ-

التى وهبها كعب بن زهير مكافأة له على قصيدته التى مدحه بها، وقد اشترى معاوية هذه البردة من ابن كعب، واحتفظ بها خلفاء بني العباس ضمن نفائسهم إلى أن احتلّ المغول مدينة بغداد، فأمر هولاكو بإحراقها، ويُقال: إنّ بردة النبيّ -ﷺ- الحقيقية لم تحرق ولا تزال موجودة بالأستانة".

لقد تناول كثيرٌ من الشعراء موضوع مدح الرسول -ﷺ-، وحظيت القصائد الثلاث التي نظّمها كعب بن زهير والإمام البوصيري وأحمد شوقي بمكانة عالية بين قصائد المدح، وقد جمع بين هذه القصائد خطّ فكريّ يكاد يكون واحدًا انطلق من التسمية التي صارت علمًا عليها، فقد عرفت قصيدة كعب بالبردة، ومن بعده كانت بردة البوصيري، ثم جاءت نهج البردة لأمير الشعراء تيمّنًا ببردة الرسول -ﷺ- [حسن حسين، 1400، ص: 9].

وبردة الشرف في عنوان هذا البحث هي القصيدة المديحة النبوية الميمية التي نظّمها الإمام شرف الدين البوصيري، وعدد أبياتها مائة وستون بيتًا، قال في أواخرها (د ت، ص: 55):

وَهَذِهِ بُرْدَةُ الْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمَتْ * وَالْحَمْدُ للهِ فِي بَدْءٍ وَفِي خَتَمِ
أَبْيَاتُهَا قَدْ أَتَتْ سِتِّينَ مَعْ مَائَةٍ * فَرِّجْ بِهَا كُرْبَنَا يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ

قال عنها السَّقَّاف (1428، ص: 1): "قصيدة البردة من القصائد الشهيرة في المديح النبوي، هامَ فيها أهل التصوّف فشرحوها عشرات المرات وبلغات مختلفة، وشطَّروها، وخمَّسوها، وسبَّعوها، وعارَضوها، ونظموا على نهجها، وغلوا فيها حتى جعل بعضهم لأبياتها بركة خاصة وشفاء من الأمراض، بل من كَتَبَة الأحجبة والتمائم من يستخدم لكل مرض أو حاجة بيتًا خاصًّا: فبيتٌ لمرض الصرع، وبيتٌ للحفظ من الحريق، وآخر للتوفيق بين الزوجين وهكذا، وكانت البردة وما تزال عند بعض الناس من الأوراد التي تُقرأ في الصباح والمساء في هيبة وخشوع، وأبياتها تُستعمل إلى اليوم في الرقى وتتلى عند الدفن، وقد وضعوا لها شروطًا عند قراءتها كالوضوء واستقبال القبلة وغير ذلك".

صاحب البردة: هو محمد بن سعيد بن حمّاد الصنهاجي، شرف الدين أبو عبد الله، اشتهر بالبوصيري، أصله مغربيّ، وكانت وفاته في الإسكندرية سنة 696ه. تثقّف بثقافة عصره، فدرس القرآن الكريم، والتحق بجامع الشيخ عبد الظاهر، فدرس العلوم الدينية وما تيسَّر له من علوم اللغة كالنحو والصرف والعروض والأدب والتأريخ والسيرة النبوية، ثم اطلع على أسرار التصوّف وآدابه وطرقه، وأخذ ذلك عن أبي العباس المرسي الذي خلف أبا الحسن الشاذلي في طريقته [بسج، 1426، ص: 5-8]. وقد أخذ عنه جماعة منهم أبو حيان الأندلسي (ت: 725ه).

قال حسن حسين (1400ه، ص: 50): "وكان الإمام البوصيري فقيهًا وكاتبًا وشاعرًا ذاعت شهرته بعد قصيدته التي صاغها في مدح خير البرية، واشتهر بها، لما روى قصة حلمه بالرسول والتحافه ببردته -ﷺ-، وسميت قصيدة البوصيري بالبردة تشبيهًا لها ببردة كعب بن زهير التي نظمها مدحًا في الرسول الكريم -ﷺ- مستشفعًا بها عنده وخلع عليها هذا الاسم؛ لأنّ الرسول -ﷺ- خلع على كعب بردته حينما سمع شعره فيه. وكذلك بردة البوصيري نظمها مدحًا في رسول الله -ﷺ- حين أصيب (بالفالج)، واستشفع بها إلى النبيّ -ﷺ- وإلى الله أن يعافيه، ثم

نام فرأى النبيّ -ﷺ- يمسح على وجهه بيده المباركة وألقى عليه بردته الشريفة، فانتبه من منامه معافى قد بريء من علته، ونسج البعض حول هذه القصيدة الكثير من القصص والخيالات، بل وضعوا لها شروطًا عند قراءتها مثل: استقبالهم القبلة والوضوء وغيرهما، ثم جعلوا لها المناقب والفضائل، كما احتقر نسخها وتأجيرها، وشاعت هذه القصيدة وبخاصة في حلقات الذكر والمريدين وغيرهم، وظلّت البردة على الرغم من طعن بعض الفقهاء فيها ذات مكانة مقدسة عند بعض المسلمين".

ويمكن تجزئة بردة الشرف البوصيري إلى أجزاء عشرة، حيث تبدأ بالنسيب والحنين والتلهّف إلى الديار المقدسة، ثم الحديث عن مولده -ﷺ- والمعجزات التي حدثت أثناء الولادة، وقد استغلّ الإمام البوصيري في هذا الجزء كثيرًا من الموضوعات التي قرأها في السيرة النبوية، ومن المعجزات الواقعية لا مكان للشك فيها سجود الشجرة، والغمامة التي تظلّله، ثم الحديث عن الإسراء والمعراج في تسلسل منطقي مستمدًّا من القرآن الكريم، ثم الغزوات وشجاعته -ﷺ- وشجاعة المسلمين.

المبحث الأول: قيام الرسول -ﷺ- في الليل

قال الإمام شرف الدين البوصيري (2005، ص: 167):

ظلمْتُ سُنَّةَ مَنْ أحْيَا الظّلَامَ * أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ إِلَى

في هذا البيت أشار البوصيري إلى صفة قيام الرسول -ﷺ- في الليل وطوله، فقد أمر الله تعالى نبيّه محمدًا -ﷺ- بقيام الله في آياتٍ كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[المزمل: 1-4]، وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[الإسراء: 79]، وقال أيضًا: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: 26].

كان الرسول-ﷺ- يقوم الليل امتثالًا لأمر ربّه، أمّا صفة هذا القيام فقد وردت في الأحاديث الصحيحة، منها ما روي عن أمّ المؤمنين عائشة –رضي الله عنها- قالت: كان رسولُ الله -ﷺ- إذا صلَّى قام حتّى تَفَطَّرَ رِجْلاه، قالت عائشة: يا رسولَ الله أَتَصْنَعُ هذا، وقد غُفِرَ لك ما تَقَدَّمَ من ذنبك وما تَأَخَّرَ، فقال: "يا عائشةُ أفلا أكون عبدًا شكورًا" [مسلم، د ت، 2172/4 (2820)].

فالرسول -ﷺ- كان يحيي الظلام أي: الليل بقيامه الطويل حتى تشتكي قدماه من طول القيام، وفي البيت الحثّ على إحياء هذه السنة المظلومة، فإذا كان الإمام البوصيري قد رأى من نفسه قصورًا وعجزًا عن الامتثال بالسنة المطهرة في ذلك العصر فماذا نقول عن عصرنا الحاضر، حيث ينشغل الكثير عن الصلوات المكتوبة فضلًا عن النوافل.

ومن الناس من يحيي الظلام بالدردشة وتصفّح المواقع الاجتماعية، وبعضهم يقضون لياليهم في أماكن اللهو والفنادق، وفي الليل لصوص وطوارق، ومن أدعيته -ﷺ-: "أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التّامّات التي لا يجاوزهنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ من شرّ ما ينزل من السماء، وشر ما يعرج فيها، وشر ما ذَرَأَ في الأرض، وشر ما يخرج منها، ومن فِتَن الليل والنهار، ومن طوارق الليل إلّا طارقٍ يطرق بخيرٍ يا رحمن" [مالك، 1425ه، 1386/5 (3500)]. فحريٌّ

بالمسلم أن يقتدي بالرسول-ﷺ-، فيقوم الليل، ويستنّ بسنّته فيقول أدعيته الواردة، وأذكاره الثابتة.

المبحث الثاني: زهد الرسول -ﷺ-

قال الإمام شرف الدين البوصيري (2005، ص: 167):

وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ * تَـحْتَ الْـحِجَارَةِ كَشْحًا مترَفَ الأدمَ
وَطَوَى * وَرَاوَدَتْهُ الْـجِبَالُ الشّمُّ مِنْ ذَهَبٍ * عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمِمِ
إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعصمِ * وَأَكَّدَتْ زَهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ

في هذه الأبيات الحديثُ عن زهده -ﷺ-، ووردت فيها صورتان من صور زهده -ﷺ-، قال بحرق (1419ه، ص: 437): "وأمّا زهده -ﷺ- وإيثاره للعقبى: فحسبك ما اشتهر عنه من تقلُّله منها، وإعراضه عن زهرتها، امتثالًا لقول ربّه - سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾[طه: 131]، وكان -ﷺ- كما اتّفق عليه نقلة الأخبار عنه- مقتصرًا في نفقته وملبسه ومسكنه على قدر الضّرورة منها، ولقد عرضت عليه أن تجعل له بطحاء (مكّة) ذهبًا، أو أن تكون الجبال ذهبًا لا حساب عليه فيها، فاختار أن يكون نبيًّا، عبدًا، يجوع يومًا، ويشبع يومًا، ثمّ جيئت إليه الأموال من الغنائم والخمس والزّكوات والجزية والهديّة فصرفها في مصارفها، وقوّى المسلمين بها، وسدّ به فاقتهم، وأغنى به عيلتهم، ولم يستأثر منها بشيء دونهم، وفي (الصّحيحين): ما شبع نبيّ الله -ﷺ- وأهله من خبز برّ ثلاثة أيّام تباعًا حتّى فارق الدّنيا".

في صحيح البخاري (1422ه، 153/3، (2567)) عن عُرْوَةَ، عن عائشة - رضي اللَّه عنها- أنها قالت لعُرْوَةَ: "ابنَ أختي، إنْ كُنَّا لننظر إلى الهلال، ثمّ الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول اللَّه -ﷺ- نَارٌ"، فقُلْتُ: يا خالةُ: ما كان يُعِيشُكُمْ؟ قالت: "الأَسْوَدَان: التمرُ والماءُ، إلّا أنه قد كان لرسول اللَّه -ﷺ- جيرانٌ من الأنصار، كانت لهم منائحُ، وكانوا يمنحون رسول اللَّه -ﷺ- من ألبانهم، فيسقينا". وفي تعليق مصطفى البغا على الحديث: (وما أوقدت ...) كناية عن طبخ شيء من اللحم أو سواه. (يعيشكم) يقيتكم من الطعام. (منائح) جمع منيحة وهي الشاة أو الناقة التي تعطي للغير ليحلبها وينتفع بلبنها ثم يردها على صاحبها وقد تكون عطية مؤبدة بعينها ومنافعها كالهبة. وهذه صورة بيت النبوة الواردة في الحديث السابق هي المثبتة في قول البوصيري:

وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ * تَـحْتَ الْـحِجَارَةِ كَشْحًا مترف الأدمِ
وَطَوَى

السغب هو الجوع، والساغب الجائع، ومنه المسغبة، قال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: 14].

وفي معنى الكشح، قال الخليل (د ت، 57/3): "الكشح: من لدن السرة إلى المَتْن ما بين الخاصِرة إلى الضِلَع الخَلْف، وهو موضع موقع السيف إلى المُتَقَلِّد، وطَوَى فلانٌ كَشْحَه على أمر: إذا استَمَرَّ عليه".

قال يحيى حلو (1426ه، ص: 53): "السغب: الجوع، الكشح: الخاصرة، المترف: الناعم، الأدم: الجلد، المعنى: كان - عليه الصلاة والسلام- يعصب بطنه الشريف من ألم الجوع، ويشدّ على خصره الناعم الحجر والحجرين تخفيفًا لهذا الألم، روى البخاري (1422ه، 108/5، (4101)) عن جابر - رضي الله عنه- قال: "إنّا كنّا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا إلى النبيّ -ﷺ- فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا".

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه- أنه قال: "أنّ رسول اللَّه -ﷺ- كان يربِط الحجر على بطنه من الغرث" [ابن الأعرابي، 1418ه، 37/1 (21)]، أي: من الجوع. وهذه الحالة هي المصوّرة في بيت البوصيري الذي بين يدينا، وتدلّ على زهده -ﷺ- عمّا في أيدي الناس، وعن الدنيا وزخارفها.

والصورة الثانية من صور زهده -ﷺ- الواردة في بردة البوصيري جاءت في قوله:

وَرَاوَدَتْهُ الْـجِبَالُ الشّمُّ مِنْ ذَهَبِ * عَنْ نَفْسِهِ فَأراها أيَّـمَا شمِمِ

ذكر البوصيري أنّ الجبال عرضت نفسها على النبيّ -ﷺ- لنصرته، ولم يثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، لكنّ الثابت هو أنّ ملك الجبال هو الذي جاء إلى النبيّ -ﷺ-، فعن عائشة – رضي الله عنها- أنها قالت لرسول الله -ﷺ- هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أحد؟ فقال: لقد لقِيت من قومك وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلّا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إنّ الله –عزّ وجلّ- قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم، قال: "فناداني ملكُ الجبال وسلّم عليَّ، ثمّ قال: يا محمّد، إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملكُ الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئتَ، إن شِئْتَ أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله -ﷺ-: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيْئًا" [البخاري، 1422ه، 115/4، (3231)؛ مسلم، د ت، 1420/3 (111)].

في هذا الحديث الصحيح ثبت أنّ ملك الجبال –عليه السلام- بعثه الله تعالى إلى النبيّ -ﷺ- ليقوم بحاجته وتنفيذ أمره، إلّا أنه -ﷺ-: لم يجد ذلك فرصة له ليطلب شيئًا من الدنيا، وقد أحسن البوصيري في رسم هذه الصورة، "ورغم جوعه هذا، عرضت عليه الجبال العظيمة العالية لتكون ذهبًا خالصًا له، فترفَّع عنها غاية الترفُّع، وزهد فيها زهدًا شديدًا، وعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه- أنّ النبيّ -ﷺ- قال: "عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذَهَبًا، فقلتُ: لا يا ربِّ، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جُعْتُ تضرَّعْت إليك وذكرتُك، وإذا شبعتُ حمدتُك وشكرتك"، رواه الترمذي (1998، 153/4، (2347)): وقال: هذا حديث حسن [يحيى حلو، 1426ه، ص: 53].

المبحث الثالث: شفاعة الرسول -ﷺ-

قال الإمام شرف الدين البوصيري (2005، ص: 167):

هُوَ الْـحَبِيبُ الّذِي تُرْجَى * لِكُلِ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحِمِ
شَفَاعَتُهُ

في هذا البيت أشار البوصيري إلى حاجة الخلق إلى شفاعته -ﷺ-، وهي الشفاعة العظمى التي يكرّم بها يوم القيامة، وهي المقام المحمود الذي وعده ربّه –جّل وعلا- في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]، قال مجاهد (1410ه، ص: 441): "المقام المحمود شفاعة محمّدٍ -ﷺ-.

وعن أنسٍ - رضي اللَّه عنه-: أنّ النبيَّ -ﷺ- قال: " يُحْبَس المؤمنون يوم القيامة حتى يُهِمُّوا بذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربّنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدمَ .... فيأتون نوحًا .... فيأتون إبراهيم .... فيأتون موسى .... فيأتون عيسى .... فيأتوني، فأستأذن على ربّي في داره، فيؤذَن لي عليه، فإذا رأيتُه وقعتُ ساجدًا، فيدَعُني ما شاء اللَّه أن يدعني، فيقول: ارْفَعْ محمّد، وقلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قال: فأرفع رأسي، فأُثني على ربّي بثناءٍ وتحميدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثم أَشْفَعُ فيحدُّ لي حدًّا...." [البخاري، 1422ه، 131/9، (7440)]، وهذه شفاعته -ﷺ- في هولٍ عظيمٍ من أهوال يوم القيامة.

ويؤخذ على البوصيري طلب شفاعته -ﷺ- لكل هولٍ مقتحمٍ، فكاشف الغمّ والهول هو الله سبحانه، وكان الرسول -ﷺ- يدعو بهؤلاء الكلمات ويعظِّمهنّ: "اللَّهمّ فارجَ الهمّ، وكاشف الكَرْب، ومجيب المضطَرِّين، ورحمنَ الدنيا والآخرة ورحيمَهما، ارْحَمْني اليوم رحمةً واسعةً تُغْنِينِي بها عن رحمة مَن سِوَاكَ" [ابن أبي شيبة، 109/6، (29866)]. وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه- قال: كان النبيّ -ﷺ- إذا كربه أمرٌ قال: "يا حيُّ يا قيّوم برحمتك أستغيث" [الترمذي، 1998، 425/5، (3524)].

وهناك شفاعته -ﷺ- الخاصة بأمته على نحو ما ورد عن جابر بن عبد اللَّه – رضي الله عنه- أنّ رسول اللَّه -ﷺ- قال: "من قال حين يسمع النداء: اللّهمّ ربَّ هذه الدعوة التامّة، والصلاة القائمة آتِ محمدًا الوَسيلة والفضيلة، وابعثْه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلّتْ له شفاعتي يوم القيامة" [البخاري، 1422ه، 126/1، (614)].

ولكونه -ﷺ- بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ، يشفع للعصاة من أمته، على نحو ما جاء في حديثه الصحيح في مراجعته لربه –جلّ في علاه يوم القيامة: "ثم أعود الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمّد ارفعْ رأسك، وقل يُسمَعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأقول: يا ربّ ائْذَنْ لي فيمن قال: لا إله إلا اللَّهُ، فيقول: وعزّتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي لأُخْرِجَنَّ منها من قال لا إله إلا اللَّهُ" [البخاري، 1422ه، 147/9، (7510)].

المبحث الرابع: خُلُق الرسول -ﷺ-

قال الإمام شرف الدين البوصيري (2005، ص: 168):

أكْرِمْ بَـخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ * بِالْـحُسْنِ مُشْتَمِل بِالْبِشْرِ مُبْتَسِمِ
كَالزّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالْبَدْرِ فِي * وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ والدَّهْرِ فِي
شَرَفٍ هِـمَمِ

اتفق جميع من تناول بردة الإمام البوصيري بالدراسة مستحسنًا أو ناقدًا على أنّ هذين البيتين من أجمل ما في البردة، قال السقّاف (1428، ص: 13): "والحاصل أنّ البوصيري كان من غلاة الصوفية الشاذلية، ولا ينفع الذين دافعوا عنه التماسهم العذر له في بعض الأبيات أو توجيهها وجهة حسنة، فهذا إنما يقال لمن كان سليم المعتقد سليم المنهج والطريقة، ثم تزل قدمُه في مسألة أو مسألتين، فهذا يُلتمس له العذر فيها، أمَّا من كانت هذه طريقته، وهذا معتقده، وهذا ديدنه، فمهما التمسنا له العذر في بيت أو بيتين فماذا عن الباقي؟! وماذا عن شرَّاح هذه القصائد الذين يؤكّدون هذه المعاني ويتتابعون عليها في شرح قصائده؟! وهذا كله لا يمنعنا أن نشيد بقوةِ شِعْره وجزالته، سواء كان من شعر مديح المصطفى -ﷺ- أو ما فيه من حِكَمٍ ودُرَرٍ، فمن مليح المديح قوله في البردة:

أكْرِمْ بَخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ * بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالْبِشْرِ مُبْتَسِمِ
كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالْبَدْرِ فِي شَرَفٍ * وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ والدَّهْرِ فِي هِمَمِ

في صدر البيت الأول أورد البوصيري ما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، وزيّنه الشاعر بأسلوب التعجّب، أي: ما أكرم هذا النبيّ الذي ازداد حسنًا بالأخلاق العالية، واتّسم بالجمال والبهاء، وطلاقة المحيّا، وقد وردت في خلقه أحاديث كثيرة، منها ما قالت عنه زوجه عائشة – رضي الله عنها- حين سئلت عن خلقه -ﷺ-: "كان خُلُقُه القرآنَ، يرضَى لرضاه ويسخط لسخَطِهِ" [البيهقي، 1423ه، 23/3 (1360)].

وقال أنس بن مالك - رضي الله عنه-: قدم رسول الله -ﷺ- المدينة ليس له خادمٌ، فأخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله -ﷺ-، فقال: يا رسول الله، إنّ أنسًا غلام كيّسٌ فلْيَخْدُمْك، قال: "فخدمْتُهُ في السفر والحضر، ما قال لي لشيءٍ صنعتُهُ لِمَ صنعتَ هذا هكذا؟ ولا لشيءٍ لم أصنعْهُ لِمَ لَمْ تصنعْ هذا هكذا؟"، وقال في موضع آخر: "كان النبيُّ -ﷺ- أحسنَ الناس خُلُقًا" [البخاري، 1422ه، 11/4، (2768)، 45/8 (6203)].

ومما ورد في تفاصيل خُلقه -ﷺ- ما جاء عن أبي عبد الله الجَدَلِيّ – رضي الله عنه- أنه قال: قلت لعائشة –رضي الله عنها-: كيف كان خُلُقُ رسول الله -ﷺ- في أهله؟ قالت: "كان أحسنَ الناس خُلُقًا، لم يكن فاحشًا، ولا متفحِّشًا، ولا سخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسّيّئة السّيّئةَ، ولكن يعفو ويصفح" [ابن حبان، 1414ه، 355/14 (6443)].

في البيت الثاني يشبّهه الشاعر بالزهرة في نعومتها، والبدر في نوره، والبحر في عطائه، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: "كان النبيّ -ﷺ- أجودَ الناس بالخير، وكان أجودُ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريلُ، وكان جبريل -عليه السلام- يلقاه كلَّ ليلة في رمضان، حتّى ينسلخ، يعرض عليه النبيّ -ﷺ- القرآن، فإذا لقيه جبريل -عليه السلام-، كان أجودَ بالخير من الرّيح المرسَلة" [البخاري، 1422ه، 26/3، (1902)].

ولا غرو في كونه -ﷺ- أحسن الناس خلقًا، فقد روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله -ﷺ-: "إنما بُعِثْتُ لأُتمِّم مكارم الأخلاق" [البيهقي، 1424ه، 323/10 (20782)].

وكان -ﷺ- يدعو إلى مكارم الأخلاق، قال أبو هريرة - رضي الله عنه-: قال رسول الله -ﷺ-: "ألا أدلّكم على مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة؟" قالوا: بلى يا رسول -ﷺ-، قال:"صِلْ

مَنْ قطعك، وأَعْطِ مَنْ حرمك، واعْفُ عمَّنْ ظلمك" [البيهقي، 1423ه، 418/10 (7725)]. وعن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما- أنه قال: إنّ رسول الله -ﷺ- قال في مجلسٍ: "ألا أُحدّثكم بأحبّكم إليّ وأقربكم منّى مجلسًا يوم القيامة؟" ثلاث مراتٍ يقولها، قال: قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: فقال: "أحسنُكم أخلاقًا" [ابن حنبل، 1416ه، 462/6 (7035)].

المبحث الخامس: معجزة الرسول -ﷺ-

قال الإمام شرف الدين البوصيري (2005، ص: 169):

جَاءَتِ لِدَعْوَتِهِ الأَشْجَارُ * تَـمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمِ
سَاجِدَةً * فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْـخَطِّ فِي اللقَمِ
كَأَنَّـمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِـمَا كَتَبَتْ

قال حسن حسين (1400، ص: 68): "ويختار الإمام البوصيري إيمان الأعرابيّ أمام أدلة مادية، فعندما جاءه أعرابيٌّ وطلب منه إظهار نبوته أمر الأشجار أن تأتي إليه، ثم أمرها أن تعود كما كانت، وبهذا الأمر خطّت وسطرت الأشجار سطورًا على الأرض، مؤكدة معجزة الرسول -ﷺ-، فآمن الأعرابي بعينه بما لم يؤمن به بقلبه". عن ابن عمر –رضي الله عنهما- قال: كنّا مع رسول الله -ﷺ- في سفرٍ، فأقبل أعرابيٌّ فلما دنا منه، قال له رسول الله -ﷺ-: "أين تريد؟، قال: إلى أهلي، قال: "هل لك في خيرٍ؟" قال: وما هو؟، قال: "تشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأنّ محمدًا عبده ورسوله"، قال: ومن يشهد لك؟ فقال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: "هذه السَّلَمَةُ"، فدعاها رسول الله -ﷺ- وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخدُّ الأرض خدًّا حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا، فشهدت ثلاثًا أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه، وقال: إن اتّبعوني أتيتُك بهم، وإلّا رجعتُ فكنتُ معك" [الدارمي، 1412ه، 167/1 (16)]. وقال يحيى حلو (1426ه، ص: 103): "يتحدّث الآن عن بعض المعجزات التي وقعت له تكريمًا من ربّه، فيقول: استجابت الشجرة لطلبه -عليه الصلاة والسلام- عندما طلب منها المجيء، فجاءته ملبية تشقّ الأرض بساقها حتى استوت أمامه".

ثم قال الإمام شرف الدين البوصيري (2005، ص: 169):

وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ * وَكُلَّ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي
وَمِنْ كَرَمٍ فَالصِّدْقُ فِي الْغَارِ * وَالصِّدِّيقُ لَـمْ يَرِمَا
ظَنُّوا الحَمَامَ وَظَنُّوا * الْعَنْكَبُوتِ عَلَى
وَقَايَةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ * مُضَاعَفَةٍ
وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ إِرِمِ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَـمْ تَنْسجْ وَلَـمْ تَـحُمِ
مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأَطُمِ

في هذه الأبيات يحكي الإمام البوصيري قصة مطاردة الكفّار للرسول -ﷺ- وصديقه أبى بكر - رضي الله عنه-، وكيف أنه بعد دخولهما الغار وبأمرٍ من الله تعالى نسج العنكبوت نسيجًا كثيفًا، واستقرّت الحمامة وباضت عند مدخل الغار، مما جعل الكفّار لا يبصرون من بداخله،

ويتوهمون بأنه خالٍ لم يدخله أحدٌ منذ أمد بعيد، ويؤكّد البوصيري أنّ هذه المعجزة هي وقاية من الله للصاحبين المهاجرين، وهي خير من أقوى الحصون وأشدّ الدروع [حسن حسين، 1400، ص: 69].

والقصة المنوطة بهذه المعجزة التي أوردها الإمام البوصيري في هذه الأبيات، قد لخّصها الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: 40]، قال السمرقندي (د ت، 58/2): "قوله تعالى: ﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ يعني: إن لم تنصروه ولم تخرجوا معه إلى غزوة تبوك، فالله ينصره كما نصره، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار مكة من مكة، ﴿ثانِيَ اثْنَيْنِ﴾ يعني: كان واحدًا من اثنين، يعني: رسول الله -ﷺ- وأبا بكر، ولم يكن معهما غيرهما، فنصرهما الله تعالى، ﴿إِذْ هُما فِي الْغارِ﴾ وذلك حين أراد أهل مكة قتله، فهاجر النبيّ -ﷺ- من مكة إلى المدينة".

وذكر مقاتل (1423ه، 171/2) بعض ما جرى بين الصدق والصديق في الغار: "﴿إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ﴾ وذلك أنّ النبي -ﷺ- قال لأبي بكر: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا﴾ في الدفع عنا وذلك حين خاف القافة حول الغار، فقال أبو بكر: أتينا يا نبي الله، وحزن أبو بكر فقال: إنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت تهلك هذه الأمة، فقال النبي -ﷺ-: "لا تحزن"، ثم قال النبي -ﷺ-: "اللهم اعم أبصارهم عنّا"، ففعل الله ذلك بهم ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ يعني النبي -ﷺ-، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها﴾ يعني الملائكة يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم خيبر".

ومن معجزاته -ﷺ- الواردة في أبيات البردة، ما جاء في قول البوصيري (2005، ص: 169):

كَمْ أبْرَأَتْ وَصَبًا بِاللّمْسِ * وَأطْلَقَتْ أربًا مِنْ ربْقَةِ اللّمَمِ رَاحَتُه

وهي المعجزة المرتبطة بيده الشريفة، فإذا مسح بها المريض شُفِي، قال السائب: ذهبت بي خالتي إلى رسول اللَّه -ﷺ- فقالت: يا رسول اللَّه، إنّ ابن أختي وَجِعٌ، "فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، ثمّ توضَّأ فشربْتُ من وَضوئه، وقمْتُ خلف ظهره، فنظرت إلى خاتم النّبوة بين كتفيه مثل زِرّ الحَجَلَةِ" [البخاري، 1422ه، 120/7، (5670)].

ومن بركات يده الشريفة ما ذكره عبد اللَّه بن مسعود –رضي الله عنه- في قوله: كنت يافعًا في غنمٍ لعُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ أرعاها، فأتى عَلَيَّ النبيُّ -ﷺ- وأبو بكر، فقال: "يا غلام هل معك من لبنٍ؟"، فقلت: نعم، ولكنّي مؤتمَنٌ، قال: "ائتني بشاةٍ لم يَنْزُ عليها الفحلُ"، فأتيته بعَناق، فاعتقلها رسول اللَّه-ﷺ-، ثمّ جعل يمسح الضَّرْعَ، ويدعو حتى أنزلت، فأتاه أبو بكر - رضوان اللَّه عليه- بشيءٍ، فاحتلب فيه، ثم قال لأبي بكر: "اشْرَبْ"، فشرب أبو بكر -رضي اللَّه عنه-، ثم شرب النبيُّ -ﷺ- بعده، ثم قال للضَّرْع: "اقْلِصْ"، فقلص، فعاد كما كان، قال: ثم أتيت النبيَّ -ﷺ- فقلت: يا رسول اللَّه علِّمْنِي من هذا الكلام أو من هذا القرآن، فمسح رأسي، وقال -ﷺ-: "إنك غلامٌ مُعَلَّمٌ"، قال: فلقد أخذت من فيه سبعين سورةً، ما نازعني فيها بشرٌ" [ابن حبان، 1414ه، 432/14 (6504)].

المبحث السادس: الإسراء والمعراج

قال الإمام شرف الدين البوصيري (2005، ص: 170-171):

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ * كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً * مَنْ قَابَ قَوْسَيْنَ لَمْ تدركْ وَلَمْ ترمِ
وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ بِهَا * والرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
وأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ * في مَوْكَبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ

قال تعالى: ﴿ سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

الإسراء والمعراج من معجزات الرسول -ﷺ- وأفردته بالمبحث؛ لأنّ الإمام البوصيري دخل في بعض تفاصيله، وهي معجزة ثابتة بآياتٍ من الكتاب ومرويات من السنة، قال حسن حسين (1400ه، ص: 75): "يتحدث عن معجزة أخرى من معجزات الرسول -ﷺ- بعد القرآن، فيتعرض لذكر الإسراء والمعراج، وتدور أبيات القصيدة حول ليلة الإسراء والمعراج وكيف بدأت رحلته من مكة إلى المسجد الأقصى، ومن المسجد الأقصى إلى السموات العلا، ثم الوصول إلى سدرة المنتهى، ولقاء الرسول -ﷺ- بربه، وفرض الصلوات الخمس عليه وعلى أمته، ثم العودة إلى مكة، والتحدّث بما رأى خلال هذه الرحلة التي لم تستغرق سوى ليلة واحدة مع ما قدم من وصف دقيق وصحيح في وضوح وتفصيل أذهل عقول المشركين وحيّر أفكارهم، والمقصود بالتفصيل أنه بيّن عظمة هذه المعجزة، وهي نعمة نالها الرسول الكريم -ﷺ- ولم ينلها قبله بشرٌ، ولن ينالها من بعده إنسانٌ، فقد أسريَ به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس في فلسطين، وكأنه في عصرنا هذا يركب طائرة أو صاروخًا أسرع من الصوت، ثم يعرج به إلى السموات العلا، حيث لم يحدث هذا من قبل لأي إنسان حتى في الأساطير، وليس هذا فقط وإنما يصعد إلى سدرة المنتهى، ويكون أقرب إلى العرش العظيم، وهي غاية لم يدركها ولن تخطر على قلب بشر".

قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۞ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ [النجم: 1-15].

قال الطبري (1420ه، 333/17): "ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا باب الجبَّار ربّ العزّة، فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما شاء، وأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمته كل يوم وليلة، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه، فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال: "عهد إليّ خمسين صلاة على أمتي كل يوم وليلة؛ قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك وعنهم، فالتفتّ إلى جبرائيل كأنه

يستشيره في ذلك، فأشار إليه أن نعم، فعاد به جبرائيل حتى أتى الجبَّار عزّ وجلّ وهو مكانه، فقال: "ربّ خفّف عنّا، فإنّ أمتي لا تستطيع هذا، فوضع عنه عشر صلوات؛ ثم رجع إلى موسى عليه السلام فاحتبسه، فلم يزل يردّده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه عند الخمس، فقال: يا محمد قد والله راودتُ بني إسرائيل على أدنى من هذه الخمس، فضعفوا وتركوه، فأمتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبصارًا وأسماعًا، فارجعْ فليخفِّفْ عنك ربّك، كلّ ذلك يلتفت إلى جبرائيل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبرائيل، فرفعه عند الخمس، فقال: يا ربّ إنّ أمتي ضعاف أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فخفف عنا، قال الجبَّار -جلّ جلاله-: يا محمد، قال: لبَّيك وسعديك، فقال: إني لا يُبدّل القول لديّ كما كتبت عليك في أمّ الكتاب، ولك بكلّ حسنة عشر أمثالها، وهي خمسون في أمّ الكتاب، وهي خمس عليك؛ فرجع إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟ فقال: خفَّف عني، أعطانا بكلّ حسنة عشر أمثالها، قال: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من هذا فتركوه فارجعْ فليخفّف عنك أيضًا، قال: "يا موسى قد والله استحييت من ربي مما أختلف إليه، قال: فاهبطْ باسم الله، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام".

المبحث السابع: غزوات الرسول -ﷺ-

قال الإمام شرف الدين البوصيري (2005، ص: 172):

هُمُ الْـجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ * مَاذَا رَأى مِنْهُمُ فِي كُلِّ
مصادمهم وسَلْ حُنَيْنًا وسَلْ * مُصْطَدِمِ فصول حَتْفٍ لَـهُمْ
بَدْرًا وسَلْ أُحُدًا أدْهَى مِنَ الوَخِمِ

كان الإمام البوصيري يصف بسالة الصحابة – رضي الله عنهم- في الدفاع عن الإسلام، ومن شواهدها ما أظهروه في غزواتهم مع الرسول -ﷺ-، وصرّح ثلاثًا منها في هذا البيت، وهي: حُنين والبدر والأحد.قال تعالى عن غزوة حنين: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 25-26].

قال قتادة: "حنين" ماء بين مكة والطائف، قاتل عليها نبيُّ الله هوازنَ وثقيفَ، وعلى هوازن: مالك ابن عوف أخو بني نصر، وعلى ثقيف: عبد يا ليل بن عمرو الثقفيّ، قال: وذُكر لنا أنه خرج يومئذ مع رسول الله -ﷺ- اثنا عشر ألفًا: عشرة آلافٍ من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطُّلَقَاء، وذكر لنا أنَّ رجلًا قال يومئذٍ: "لن نغلب اليوم بكَثْرة"! قال: وذكر لنا أنّ الطُّلَقَاء انجفَلوا يومئذٍ بالناس، وجلَوْا عن نبيّ الله -ﷺ- حتى نزل عن بغلته الشهباء، وذكر لنا أنّ نبيَّ الله قال: "أي ربّ، آتني ما وعدتني"! قال: والعباسُ آخذ بلجام بغلةِ رسول الله، فقال له النبي -ﷺ-: "ناد يا معشر الأنصار، ويا معشر المهاجرين!"، فجعل ينادي الأنصار فَخِذًا فخِذًا، ثم قال: "نادِ بأصحاب سورة البقرة! "، قال: فجاء الناس عُنُقًا واحدًا، فالتفت نبيُّ الله -ﷺ-، وإذا عصابة من الأنصار، فقال: هل معكم غيركم؟ فقالوا: يا نبي الله، والله لو عمدت إلى بَرْك الغِمادِ من ذي يَمَنٍ لكنَّا مَعَك، ثم أنزل الله نصره، وهزَمَ عدوّهم، وتراجع المسلمون، قال: وأخذ رسول الله كفًّا من تراب أو: قبضةً من حَصْباء فرمى بها وجوه الكفار، وقال: "شاهت الوجوه! "، فانهزموا" [الطبري، 1420ه، 14/180-181]:

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۞ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران: 123-125].

"﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ على أعدائكم، ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ قال الطبري (1420ه، 169/7): "أذلّة" يعني: قليلون، في غير منعة من الناس، حتى أظهركم الله على عدوّكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم، وأنتم اليوم أكثر عددًا منكم حينئذ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم ذلك اليوم". وكان الصحابة –رضي الله عنهم- في غزوة بدر وغيرها كما وصفهم البوصيري في هذه البردة، قال عبد الله بن مسعودٍ – رضي الله عنه-: شهدْتُ من المِقْدَاد بن الأَسْوَد مشهدًا، لَأَنْ أكونَ صَاحِبَه أحبُّ إِلَيَّ ممّا عُدِلَ به، أتى النبيَّ -ﷺ- وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا، ولكنّا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، "فرأيت النبيّ -ﷺ- أشرق وجهه وسرّه" [البخاري، 1422ه، 73/5، (3952)].

أما غزوة أحد فقد كانت درسًا للمسلمين، فعن أنس –رضي الله عنه-: أن رسول الله -ﷺ- كُسِرَتْ رَبَاعيته يومَ أُحُدٍ، وشُجَّ في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: "كيف يفلح قوم شجُّوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟"، فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾" [مسلم، د ت، 1417/3 (1791)].

الخاتمة

بردة الإمام شرف الدين البوصيري مديحة نبوية من مائة وستين بيتًا، حظيت بعناية العلماء، حيث تناولوها بالدراسة، واستحسنها بعضهم واستهجن بعض أبياتها الآخرون. وقد درس هذا البحث بعض ما يتعلق بالسيرة النبوية فيها، ووقف الباحثان على عشرين بيتًا يجذب القارئ وكأنه يقرأ في كتب السيرة.

توصّل البحث إلى أنّ لبردة البوصيري قيمة تأريخية لما فيها من السيرة النبوية التي أثرى بها الإمام البوصيري بردته، كما لا يخفى على كل منصف من المطلعين ما فيها من القيم الدينية، والقيم اللغوية. وتتميز أبياتها بسهولة ألفاظها مع جزالتها، وقوة تراكيبها مع بلاغتها، ومع ذلك فيها أبيات بيّنة الغلو، ظاهرة المجاوزة، وقد كتب فيها السقّاف وغيره.

ويوصي الباحثان بمزيد الدراسة لبردة البوصيري، واستخراج ما فيها من الدرر مثل: وصف الصحابة، واستفاضته في الإسراء والمعراج، وكذلك تنقيحها من الدسائس العقدية التي جعلت كثيرًا من علماء النجد يحذّرون من قراءتها.

هذا، ونسأل الله تعالى أن ينفع بهذا البحث، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

قائمة المصادر والمراجع

- ***القرآن الكريم.***

- ابن أبي شيبة، أبو بكر، عبد الله بن محمد بن إبراهيم (1409ه)، ***مصنف ابن أبي شيبة (الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار)*** تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، ط1.
- الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد (2001)، ***تهذيب اللغة***، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1.
- ابن الأعرابي، أبو سعيد، أحمد بن محمد بن زياد (1418ه)، ***معجم ابن الأعرابي***، تحقيق وتخريج: عبد المحسن ابن إبراهيم بن أحمد الحسيني، السعودية: دار ابن الجوزي، ط1.
- بَحْرَق، محمد بن عمر بن مبارك الحميري الحضرمي الشافعي (1419ه)، ***حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار***، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، جدة: دار المنهاج، ط1-.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله (1422ه)، ***صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -ﷺ-)***، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق، دار طوق النجاة، ط1.
- بسج، أحمد حسن (1426ه)، ***ديوان البوصيري***، شرحه وقدّم له، طبعة مصححة منقحة، منشورات محمد علي بيضون، بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية، ط2.
- البوصيري الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد (د ت)، ***بردة المديح المباركة***.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (1423ه)، ***شعب الإيمان***، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي-الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط1.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (1424ه)، ***السنن الكبرى***، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية، ط3.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (19989، ***سنن الترمذي (الجامع الكبير)***، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد (1414ه)، ***صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان***، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (1416ه)، ***مسند الإمام أحمد***، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة:

  دار الحديث، ط1.
- حسن حسين (1400ه)، ***ثلاثية البردة بردة الرسول -ﷺ-***، الدوحة: دار الكتب القطرية، ط1
- الخليل، أبو عبد الرحمن ابن أحمد الفراهيدي (د ت)، ***العين***، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- الخوارزمي، محمد بن أحمد (د ت)، ***مفاتيح العلوم***، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط2.

- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن لسمرقندي (1412ه)، ***سنن الدارمي***، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، السعودية: دار المغني للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى.
- رجب، عبد الجواد إبراهيم (1423ه)، ***المعجم العربي لأسماء الملابس "في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث"***، تقديم: أ. د. محمود فهمي حجازي، مراجعة: أ. د. عبد الهادي التازي، القاهرة – مصر: دار الآفاق العربية، ط1.
- السَّقَّاف، علوي بن عبد القادر (1428ه)، ***قراءة في بردة البوصيري وشعره***.
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (د ت)، ***تفسير السمرقندي (بحر العلوم)***.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (1420ه)، ***جامع البيان في تأويل القرآن***، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.
- القسطلاني، أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن محمد (د ت)، ***المواهب اللدنية بالمنح المحمدية***، القاهرة- مصر: المكتبة التوفيقية.
- مالك، بن أنس (1425ه)، **الموطأ**، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي- الإمارات، ط1.
- مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر (1410ه)، ***تفسير مجاهد***، تحقيق: د محمد عبد السلام أبو النيل، مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة الأولى.
- مسلم، ابن الحجاج أبو الحسن النيسابوري (د ت)، ***صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -ﷺ-)***، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- مقاتل بن سليمان، أبو الحسن (1423ه)، ***تفسير مقاتل***، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، بيروت: دار إحياء التراث، ط1.
- يحيى حلو، محمد (1426ه)، ***البردة شرحًا وإعرابًا وبلاغة لطلاب المعاهد والجامعات***، مراجعة: محمد علي حميد الله، دمشق: دار البيروتي، الطبعة الثالثة.